

النار المقدسة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أنضجت قلبه النار المقدسة التي أنضجت قبله قلوب رعاة القطيع ... ورواد الطريق ، وآباء الإنسانية البلهاء ... فغدا يسير على الدنيا وله فيها زفير وشهيق مكتومان لا يحسهما إلا من يتصل به عن قرب فيفتح له قلبه الكبير الذي فيه كل آلام الناس ، وكل فجائع الناس ، وكل مسؤوليات الناس ... كأنه أب ذو عيال ! وكأنه مسئول عن ذنوب البشر فهو يبغض نفسه أسفاً ويسبل نفسه حشرات !

سأله مرة : لم تحمل على قلبك الدنيا ؟ ولم تجتر آلامها وتغض أسقامها ، ولست فيها حاكماً ولا شرطياً ؟ فقال : بليت بالنفارة الناقدة إلى العيوب ، وبالعجز عن وسائل الإصلاح ، فكان لي ما تراه من إدمان المضع لأحاديث الشقاء وأمانى الشفاء !

مات أبوه فبككت عينه وقلبه ذلك البكاء الرحيم لآلم الحب والرحمة والفقد ساعات ... ثم نامت عينه ونام جسده بجوار جثة أبيه حتى صباح الدفن والضريح كأن شيئاً لم يحدث ... ولكنه لا ينام إذا مات من دينه أو وطنه شيء ... حتى يكاد يجن من الأرق ، لولا أن يتداركه الله بالنسيان والسوى

ينخل الرجال والأعمال ، ويرى ما وراء الوجوه ويقرأ ما بين السطور ... فتروعه عورات الحقيقة العارية في الناس ... إذ يرى الجهل والإنم والدجل والخيانة والأنانية والبلاهة ... فيسأل السماء : أهذه هي الإنسانية أمن ودبة في الأرض حاكمة ومحكومة ؟

مرهف حسه : فيرى كل شيء ويشم كل شيء ويسمع كل شيء حتى امتلاً وأخفته الدنيا بما فيها ؛ فضوى جسده ، وتوسمت نفسه على حسابه

استقى لنفسه من الأنهار الكبيرة الجارية ، ومن الجداول الصغيرة ، ومن البرك الآسنة ، وحط على الزهرة والشوكة ،

والجبل والحصاة والنار والماء ... فاصطرعت فيه الأضداد . يعيش في سجن من وصايا الدين والعلم والخلق كأنه (ديبدان) فهو مسجون وسجّان ...

متيقظ للزمان ... يعيش كل دقيقة ... ويحسب كل نفس ، ويصحب نفسه دائماً حتى أصيب بالذهول عن الناس .

يتكلم مع كل شيء ؛ فيقول لكل حق أنت صديق ، ولكل باطل أنت عدوى ... لا يؤمن بالكاء ؛ لأنه يدلس ... ولكن يؤمن بالطبع لأنه صريح ...

يريد أن يعلم الناس كيف يحبون ؛ وهم يرونه ميتاً ... فأين الملتقى ؟

يقول لهم : لا تأكلوا الثفل ... والحروف ... والحجارة .. واكتفوا بالمصارة والمنى والروح ؛ فيقولون له : أنت تمضغ ماء وهواء ... !

يارحمته لئلا هذا مادام حياً ... فإذا مات فوارحمته للناس ! إن هذا وأمثاله هم أعضاء الإنسانية وأوتادها . من أجلهم وجدت على الأرض ، وإن نارهم موقدة من القبس الخالد الذي أضيئت به السموات وقام عليه صلاح العالم

يكفى أن أنظر إلى واحد من هؤلاء حتى أهتدى إلى نفسى الضائعة ، فأجدها تحت ركام من نجاسة الدنيا ... فأقول لها : تعالى وارمضى لغائف مدرك في هذه النار المشبوبة في هذا الرجل المحترق المضى ، وتظهرى بها وارجمى إلى ...

ولقد وجدت واحداً منهم وعشت معه سنتين ، رأيت على ضوئه كل شيء في موضعه الحقيقي من الدنيا ، فحملنى على احترام الإنسان والثقة بما فيه من عالم طاهر مؤنس إذا صُنّ جوهره من الخبث والشوائب بهذه النار

بل لقد حملنى على احتقار أكثر القوالب الإنسانية التي تملأ الأسواق والشوارع ... وجعلنى أدور دورة «ديوجين» بمصباحه وأنشد مع القائل :

ما أكره الناس إلا بل ما أقلمهم ! الله يعلم أنى لم أقل فنداً
إنى لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

أو مع النبي : « أرى أناساً ومحصولي على غم ! »
أو مع الآخر :

لا تعجبنيك الثياب والصور تسمة أعشار من ترى بقر !
في خشب السرو منهم مثل له رواء وما له ثمر

وياويل من الإنسان ! إنه يشغلني دائماً بصورة التي لاعداد
لها كلما رأيت وجهها له ... وأقسم غير حانت أني لا أعرفه ولا
أدركه ، رغم خبري به في هويتي ودمي وصورتي ! وإن نفسي التي
بين جنبي هي القفل والتلق الذي حال بيني وبينه حتى عييت
ويئست ...

بل ياويلي من نفسي واحتكاكها بما وراء الحياة الظاهرة
والصور والأشخاص والمواد ... ومن طلبها المزيد من هذا
الاحتكاك الذي ينفطسها ويتركها ذاهلة ماضية إلى غير وجه
الحياة الذي يمضي عليه الناس ...

ولكن لا ... ! بل يالذي من غريزة التكوين والتخريب
هذه التي تربني كل شيء كامل كومة من الأتقاض ... وكل
شيء مغرب خلقاً سويّاً ... !
أليس الرجل طفلاً كبيراً ؟

يلذني أن أراقب الناس وقتاً طويلاً في الشارع ، وأشبع
عيني وما وراءها من أنواعه واختلافه ... لأزداد به جهلاً ...
بل إنني أذهب إلى « السينما » لأراه في جميع بقاعه وألوان
مماشه واختلاف سحنه وألوانه ولغاته ، لأخرج بعد ذلك مبليبل
الفكر فيه في سوء ظن تارة ، وفي إحسان تارة أخرى

بل إنني أطوف كل يوم قبيل نومي بخيالي عليه في جزره النائية
في المحيطات ، وفي القطبين ، وفي خط الاستواء ، وفي هضبة التبت ،
وفي سفوح الهند ، وفي رمال العرب ، وفي ... وفي ... لأعيش
في غيبوبة الصحو قبل غيبوبة النوم !

لقد رأيته قاتلاً ومقتولاً ... جنيناً محولاً وميتاً ملحدراً ...
عاهراً وناسكاً ... جميلاً وقبيحاً ... رجلاً بشعراً وجُهموماً ،
وامرأةً بزينة ونعومة ... عالماً يضيء أستراليا وهو في أوروبا ،

وجاهلاً قدماً عارياً أبداً عاجزاً أن يمد أصابع يده ... فذهبت
من نفسي قداسه وانحطت هيئته ...

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحلات من جاد

أجل ! إنني رأيت غمه ... ورأيت قلبه ... فلم أر شيئاً غريباً
عما آكله من النعم والثيران ... ولذلك كفرت بالجسد كفرأ
لا إيمان بعده أبداً ... ورحت أبحث عن الإنسان - ذلك
المجهول ... فلم أعر إلا على لحجات عنه خلال كلمات ليست منه
وإن كانت بالفاظه . وهي كما رواها محمد :

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد »

« وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما
لا تعلمون ... »

« ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ... »

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً
مذكوراً ... »

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل
سافلين »

يايد الله ! يخيل للإنسان العاجز أنك تخرجين الصنعة من
مخاير ومساير ومجالات ودواليب في مصانع وحظائر . وأنت
تستخدمين طلاسهم ولوغاريتمات ومعادلات ... كما يفعل هو إذا
أراد أن يحاكي أو يوحد بين ذرتين أو يفصل بينهما . ولذلك
سألك إبراهيم أحد القرين إليك : رب أرني كيف تحيي الموتى
فأريته ذلك الكيف . ولكنه لم ير شيئاً أكثر من أنه دعا
موتاً فاستجاب له حياً ! إنه لم ير شيئاً ...

إن كل آلائك كلمة واحدة من حرفين اثنين يكسبنا نحن
ولكنها عندك خارجة عن حدود التعداد والقياس

إنك يد تتكلم كلمات وراءها حقائقها النجزة التي لا تنفد
ولو كتبت بما في الأرض من شجرة أقلاماً ممدودة بماء البحر
من بعده سبعة أبحر ...

قال « اسحاق نيوتن » ما معناه : إن خالق هذا الكون على

من برجنا الذهبي

يتساءل بعض الناس كيف لا يستطيع أدباؤنا أن ينتجوا إنتاج أدباء الغرب ؟ أما أنا فأتساءل كيف استطاع أدباؤنا أن ينتجوا إطلاقاً ، ولماذا هم ينتجون ؟ إن موقف أدباؤنا اليوم ليدعو إلى العجب . إنهم في موقف لم يبقه أدب ولا أدباء في عصر من العصور . إن المعروف في كل عصر أن الأدب يرعاه دائماً تشجيع طبقة من الطبقات . ففي عهد الارستقراطية كان في كنف الملوك والخلفاء والأمراء والنبلاء ، يتبارون في حمايته ، ويتسابقون في إعلاء كلمته . وفي عهد الديمقراطية الحديثة وانعدام الأمية انتقل أمره إلى يد الشعب المتعلم فهو الذي يثيب الأديب بالتهافت على اقتناء كتبه ، وهو الذي يحوطه بمظاهر الاحتفال والتقدير . أما أدباؤنا اليوم ، فهو حائر كاليتيم بين أرستقراطية لا وجود لها ، وإن وجدت فلا شأن لها بأدب ولا أدباء ، وبين ديمقراطية إسمية في شعوب لم يتم تعليمها ، فهي بعد لا تعني بأدب ولا أدباء . فأنا نتج ونحن نعرف أن إنتاجنا لا يهم الحكام ولا المحكومين ، وأن ثمرات هذا الفكر الذي أضمتنا من أجله كل حياتنا الجنية لن يجنبها غير نفر قليل ممن ينظرون إلى استشهاده بعين الرثاء . نعم إن هو إلا استشهاد ، هذا الأدب في هذه البلاد ... لا شيء غير ذلك . وإن قد سألت نفسي مراراً لن أنشر كتي ؟ فكان الجواب : إنى أفعّل من أجل أولئك التسعة أو العشرة من الأدباء الكرام الذين يفهمونى لأنهم يعانون عين الألم ، وينتظمون معي في سلك العذاب ، ويدبون مثلي على أقلامهم في تلك الحياة الطويلة الجرداء ، كأشجار صحراء من الجليل لا يهب علينا فيها غير صقيع الإهمال من الشعب وأصحاب السلطان ، ولكننا مع ذلك نسير ونسير متجلدين ، أيدي بعضنا في أيدي البعض كأنا منفيون في مجاهل سيبريا ... ونحن في الحقيقة أكثر من ذلك ... ونحن إلا منفيون في مجاهل « فكرنا » الذي يحمله الناس .

تغريبه الخليل

علم تام بعلم الميكانيكا.. تماماً كما يفكر الطفل : إن الملك عنده مائة دينار ومن هنا آفة الفكرة في « الألوهية » عند أكثر الناس إذ جعلوا « الله » على صورته. ويعنقهم ... !

قالت القدرة المطلقة للمجاز الانساني : « هج » هذه الأبجدية التي شئت أن تراها وحدها من هي حسبك من معرفة . ولكنه تخطى البدائيات وخاض في اد اهل فضل في فلسفاته وفرضياته حتى عاد لا يرى تلك الشيئة الذية

« حددوا المادة وأنا أتكنس بتحديد الروح » . هذا قول « ملىكن » العالم الطبيعي الذى قاس مقدار الشحنة الكهربائية على الألكترون ، والذي اكتشف أشعة نفوق أشعة إكس ماثت الأضمان في قوة اختراقتها للمواد ... لم يتخط عقله إلى البحث في الروح قبل أن يدري ما هي المادة ... ولعمرك الحق إن مثل هذا لن يضل ...

سأراك أيتها الشمس في عيني جديدة كل صباح ... وأنت يا عالم الظلام ...

وأنت أيتها الأشجار سأحبك بلفتاتي الذهبية كلما رأيتك قائمة بالفرع ساجدة بالجزع في محراب الطبيعة ...

ويا أيها الماء والحيوان والإنسان والجبل والحصى ...
يا سائر ما خلق من الآيات التي تمر عليها ونحن عنها معروضون
أقسمت لا أبرح أراك جديدة مجيبة مثيرة للفكر في الرأس
والدم في القلب ... حتى لا أنسى ... حتى لا أنسى !
عبد المنعم مهنون

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الاستاذ الصالح
من : مكتبة الرشد ، شارع الفلكي (باب الدرة)
ومن : المكتبات العربية المشهورة